

الشعر *

في صدر الاسلام وعهد بني أمية

بقلم أحمد حسن الزيات

ظهر الاسلام وقد تحكم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافية وعصبية مفرقة ، فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها ؛ فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب ، كان من الطبيعي أن يتنفض رأسه إليه ، وألا يشجع الناس عليه ، ففي القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ، وفي الحديث : « لأن يتلى جوف أحدكم قبيحاً حتى يرآه خيرٌ له من أن يحتلُّ فمه شعراً » . فآزور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته ، على هلمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه ، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويشير دقاتن القلوب . ثم سُئل العرب جميعاً بالدعوة العظمى ، فمن مؤيد ومن معارض ، واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش ، فجردوا عليه الأستة والألسنة ، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياء والتربص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية ، وبين الديمقراطية والأرستقراطية ، وبين محمد وقريش . فلم يناصر في الخصومة إلا الشعراء القرشيين وقد كانوا قلائد قبل الاسلام لشواغل الحضارة والتجارة ، فصاروا كثيراً بدمه لدوامي النزاع والمعارضة . بدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزبير وعمر بن الماص وأبو سفيان ، فأذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء ، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لوبأذن لهم الرسول بمساجلتهم ، فها هو إلا أن قال لهم : « ماذا يمنع الدين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بالسنتهم ؟ » حتى صمد للقرشيين نفر من الصحابة ، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وشبوهاء حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجرون فيها بفضائل الوثنية ، ولم يدافع المدافعون بفضائل الاسلام ، حتى تقول إن

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي صدر حديثاً

الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جديدة ، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد ؛ يدل على ذلك قول الرسول لحسان : « اذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم » ، وقوله : « كيف تهجو قريشاً وأنا منها ؟ » فقال : أسلك كما أسل الشجرة من العجين

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً . وخضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بمد لأى ، فخرست الألسنة اللاذعة ، وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية ، وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك ، تفتت صوت الشعر لقلعة الدوامي إليه ، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والرثاء ؛ وتساهل الرسول في سماعه حتى أتأب عليه ، وحتى قال فيه : « إن من الشعر لحكمة »

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة ، وأما حاله بعدها فأقل شأنًا وأحط سكاكة لتهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء ، وانصراف هم العرب إلى الفتوح ؛ ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس ، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأدهان ، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومعن بن أوس والنابغة الجعدي ، ولكنه أثر لا يتمدى بعض الألفاظ الاسلامية كالمرور والسكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار . ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة ، فان شعرهم استمرار للذهب الجاهلي لم يتأثر بالاسلام إلا تأثراً عرضياً كضمف الأسلوب في شعر حسان ، أو قلة الانتاج في قريحة لبيد ، أو كثرة في الحطيئة والنابغة الجعدي مثلاً ؛ والأشبه بالحق أن تقرر ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والاسلام واحداً في مظهره وجوهه ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية ؛ والتأثير الذي فله من الموالى والسياسة والحضارة والدين لم يطفه إلى طرق جديدة ، وإنما وسع في معانيه ومناحيه ، فقوى بعض أغراضه كالهجاء ، وميز بعضاً آخر كالنزل . وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية ، والخلفاء يتمصبون للبادية ، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية ؛ والعرب بطبيعتهم ميلون إلى التقليد ويميلون القديم

يرى لهم الأمر ، ويمكنهم في الملك ؛ وفي الحجاز حزب يتناصر ابن الزبير ، يؤيده في دعواه وينصره في دعوته ؛ وفي العراق حزب يشايح أهل البيت ويطلب لهم بمحبتهم في الخلافة ؛ وهناك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ، ويقول بالشورى في الخلافة . وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآرائهم إلا طائفة قليلة لثمت الحياء وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين ، وهم المرجئة ؛ واتصلت بين الأحزاب الخصومة ، وأعنف فيها الخصوم ، ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والمطاء والاعضاء والحزم حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج ، فلما مات أفاق خصومه من خد ر سياسته فزعزعوا عرشه ، حتى إذا وهي أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه . وفي زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستمرت الحروب ، وكثر المطالبون بالخلافة ، وانبسط سلطان العرب ، وزخرت موارد النخيل ، واكتمل شباب الجيل الذي نشأ في الإسلام واعتدى بشمر الفتوح واستمتع بجمال الحضارة واختلط بأعماق شتى من الناس وسام يده ولسانه في هذه الفتن ، فبلغ الأدب العربي غاية ما قدر له أن يبلغ . فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة ، والمعصية الغالبة ، والأحزاب التجارية ، والأهواء المتضاربة ، والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل ، تبعثه الحزبية ويقويه المراسم وتوحيه شياطين الفرقة ؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب ، يصطنعونه كما يصطنع نحن الصحف اليوم ، فيناضل عن زعمائه ، ويدافع عن آرائهم ، ويصطبغ بصبغة المقييدة التي يدعو إليها ويتأفح عنها . وإذا علمت أنت العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات ، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمان ، وأن الأمويين استهالوا بالمال هوى الشعراء ، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء ، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس ، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك ، إذ بلغ عدد الفحول المائة . وليس من شك في أن الشعر وإن حافظ على طريقتة وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه ؛ ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً وجدالاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد ، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن

المأثور من سؤدد وخلق وأدب ؟ فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث المقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد ، فإن مذهب عمر بن أبي ربيعة في النزل لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في المعاني الحضرية ؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا في المعاني السياسية ، فلنقتصر الجهد على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرهما وأثرهما في الانتاج العقلي للعرب

كانت القحطانية والمدائنية ، والعلوية والبكرية ، والهاشمية والأموية ، واليمنية والشموينية ، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يتور ، ولكنها كانت تضمف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه ؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها في البلاد على هذه الفكرة ، والبصرة والكوفة تحططان على هذه الفكرة ، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة ، وكلها تدور على الرقعة والامامة ؛ فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الإسلام ، كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى القلبة والثروة والحكم ليس غير . ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن طاصم والأحنف بن قيس كانوا يمرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه الدين الحق ، بل ليكون لهم الأمر من بعده

ظلت هذه الروح المعصية مكتوبة في عهد الشيخين لأخذها الأمور بالحزم والعدل ، ولانصراف العرب إلى المنعم من طريق الجهاد والفتح ، فلما ولي الأمر عثمان وهنت اليد المصرفة فسندتها يد أخرى ، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده ، وحكم آلهم الناس بمصيبتهم الأموية لا بقوميتهم العربية ؛ وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والفتائم بالبراء إلى حد البطر ، فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان ، ومجددت الخصومة على أثر ذلك بين علي ومعاوية ، وقتل الامام فتخرج الأمر وانشقت المصا ، وانصرف العرب إلى جهاد الدور عن جهاد أنفسهم باللسان والسيف ، وتفرقوا أحزاباً وشيماً بعضها للدين وبعضها للدنيا . ففي الشام حزب يشايح بني أمية ،

أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها . فالعراق كان منذ القدم منتج الخواطر العربية لخصبه وغنايه ، ووفرة ظله ومائه ؛ وقد لاذ العرب قبل الاسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس ، فأنشأوا إمارة المناذرة ؛ فلما فتحوه في عهد عمر زحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة . وكان في العراق ميراث وافر من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة ، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة ، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة ، والنفوس على التنافر ؛ وأتى إليه العرب بالمصيبة اليمنية والجزرية ، ووقعت فيه الأحداث الاسلامية الجبلى كوفعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة ، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج ، واشتداد المارضة لبني أمية ، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم ، فكانت البصرة عثمانية ، والكوفة بعد استقرار الامام بها علوية ، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية ، لأنها مسكن ربيعة ، وهم كما قال الأصبغى رأس كل فتنة ؛ ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الامام علي : « يا خنازير العرب والله لئن صار هذا الأمر إلى لأضمن عليكم الجزية » . فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة ؛ فهو قوي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر ، وتتلون فيه المصيبة القبليّة ألواناً شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس ، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التمايم الاسلامية ، وتنفيذ نفحات بدوية وصلايات أموية ، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويمير عن كل مبدأ

والحجاز منبع الاسلام كان أشبه بينابيع النهر : بفيض منه الماء الصافي في سكون ورفق ، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمته التيارات فتكدر نيمره واشتد هديره ، وتوزعت الجدول والأقنية ، فبعضه في سبخ الأرض ، وبعضه في الرياض ، فروي بعضاً وأغرق بعضاً . انتقلت منه الخلافة والممارسة والدم إلى العراق والشام ، وبقى هو كما كان وكما هو الآن يقبل للمال والموتنة من كل قطر ، واقتضت سياسة الأمويين أن

يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركوه إلا باذن ، وسلطوا عليهم الترف ، وشغلواهم بالمال عن الملك ، وخلوا بينهم وبين الفراغ ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورفيق ، وفي أهل الحجاز ملاحظة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومجبة لهو ، فتبسطوا على التميم وعكفوا على اللذة ، وقطموا أيامهم بالمناذرة والمناذمة ، وذهبوا في حياة المجون كل مذهب ؛ ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان ، واستهوت هذه الحال المنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج : « ابن سرج ، والغريص ، ومعبد ، وحنين ، وابن عمرز ، وجميلة ، وهيت ، وطويس ، والدلال ، وبرد الغواد ، ونومة الضحى ، ورحمة ، وهبة الله ، ومالك ، وابن عائشة ، وابن طنبورة ، وعزرة الميلاء ، وحسابة ، وسلامة ، وبلبة ، ولذة العيش ، وسعيدة ، والزرقاء ، وابن منجج » وحتى غلب الشناء على أعمال الناس وميولهم ؛ فقد حدث الامام مالك عن نفسه قال : « نشأت وأنا غلام أتبع المنين وأخذ عنهم ، فقالت لي أمي : يا بني إن المنى إذا كان قبيح الوجه لا يلتفت إلى غنايه ، فدع الغناء واطلب الفقه فانه لا يضر معة قبح الوجه ؛ فتركت المنين واتيمت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى » . من ذلك شاع الحب في مدن الحجاز ورققت عواطف بنييه ، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضري الرقيق الصادق ، حتى كاد هذا الفن لافتنائهم فيه يبتدىء بهم وينتهي اليهم

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم ، فلا هو مضطرب العواطف كالحجاز ، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق ، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبته لخلاف ، أو يهيجوا طماعيته لغنم ، فبقى الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعث باعث ، ولا يتوافر على دراسته وروايته باحث ؛ وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد اليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه ، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما

أعضلتهم مسألة في اللغة والتحو والأدب

(يتبع)

الزيات .